الدكتور محمد عمر الخاجي

صاحب الجنتين

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾

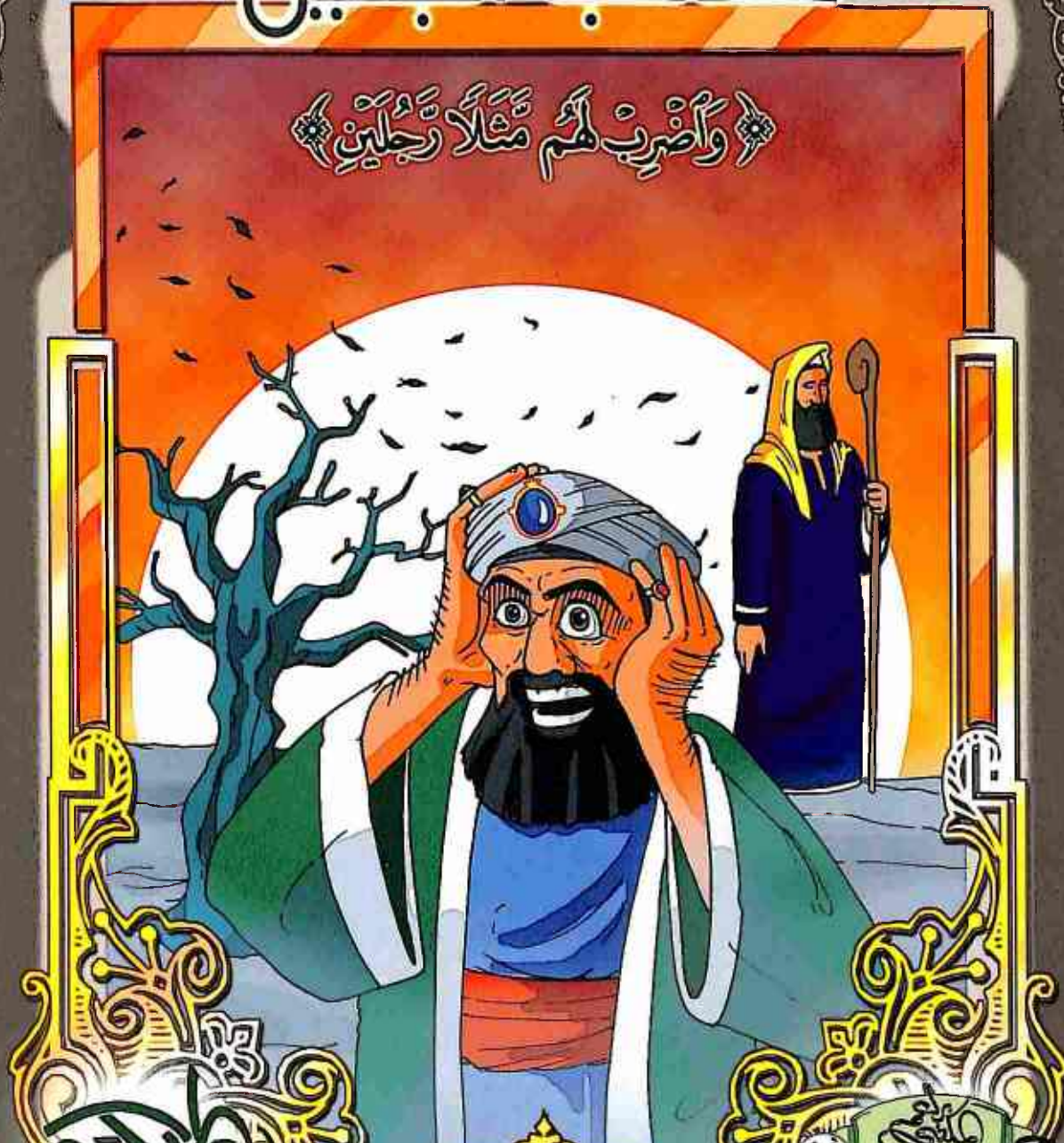

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

فـي العَـادةِ يَسْتيقـظُ النَّـاسُ يـومَ العُطْلـةِ مُتَأخِّرينَ.. لكنَّ (بُشْرى) اسْتَيْقظتْ يومَ الجُمُعةِ.. في التَّوقِيتِ الصَّباحِيِّ المُعْتادِ!

نَظَرتْ في غُرَفِ البيتِ ، فلم تَجِدْ أَحَداً قد اسْتَيْقظَ بعدُ... ، عادتْ إلى غُرْفَتِها ، واسْتَلْقتْ على سَرِيرِها قُربَ النَّافِذةِ ، وراحَتْ تَتَأمَّلُ الأَزهارَ الجَمِيلةَ في البُسْتانِ ، ثم تُلْقِي نَظْرةً أبْعَدَ نحو السَّمـاءِ ، فَتَـرى غُيـومـاً بَيْضـاءَ تُلـوِّنُ زُرْقـةَ السَّماءِ.. ، وتُنْصِتُ قليلاً لتسمعَ تَغْرِيدَ الطُّيورِ ، ولكنَّها تُرِيدُ أن تَتَحدَّثَ مع أيِّ أحدٍ.

وفَجْأةً.. رأتْ ـ ويالسعادتِها بِما رأتْ ـ.. لقد رأتْ جدَّها يتمشَّى بسرعةٍ تارةً ، وببطءٍ تارةً

أُخْـرى... ويقـفُ تـارةً تحـتَ شَجَـرةِ الـزَّيْتُـونِ الكَبيرةِ.. ثم يَنْتَقِلُ إلى شَجَرةِ اللَّيْمُونِ...

فَقَفَزتْ باتِّجاهِ الحَقْلِ.. تريدُ مُرَافقةَ جَدِّها... ، ولمَّا رآها قالَ: عَجَبٌ أمرُكِ يا بُشْرى ، أَلاَ تفرِّقينَ بين يومِ الذَّهابِ إلى المدرسةِ وبين يومِ العُطْلة؟ لماذا لا تنامِين ساعتَيْن أُخْرَيَيْن؟!

ابتسمتْ (بُشْرى).. وراحتْ تُطارِدُ الفَرَاشاتِ من هنا وهناك..

وبعدَ قليلٍ رأى (الشَّيخُ حسينُ) الجارَ العزيزَ (الشيخَ أسعدَ) فسلَّم عليهِ وسَأَلهُ عن صِحَّته.. وعن الأولادِ.. ، فطلبَ الشيخُ أسعدُ من الشَّيخِ حُسينٍ أن يُشارِكَهُ شُرْبَ الشَّاي تحتَ شَجَرةِ السِّنْديان في بُسْتانِه...

وسارَ الجَدُّ مع (بُشْرى) إلى البستانِ الآخرِ..

وجَلَسا مع الشَّيخِ أسعد ما يُقارِبُ ساعةً.. حيثُ تجاذَبا أطرافَ الحَديثِ الرَّائعِ...

ولمَّا خَرَجا مِنَ البُستانِ ، قال الجَدُّ لِبُشْرى: لَكَأنِّي أُحِسُّ بنشاطٍ كبيرٍ ، وأحبُّ الذَّهابَ إلى ساحِلِ البحرِ ، فهلاّ ناديتِ على (خالدٍ وطارقٍ) لنذهبَ جَميعاً..

قالتْ (بُشْرى): نَعَمْ يا جَدِّي ، لكنْ بِشَرْطِ أن تَحْكي لنا حِكايةً مِنَ الحِكاياتِ القُرآنيةِ الرَّائعةِ..

وافَقَ الجَدُّ.. وانْطَلَقُوا باتِّجاهِ السَّاحلِ الجَميلِ..

ولمَّا وَصَلُوا.. وجَلَسُوا على الرِّمالِ .. نَظَرَ الجَدُّ إلى البحرِ ، وراحَ يُدقِّقُ في حَرَكةِ الأمْواجِ...

والتفتَ (طارقٌ) إلى وَجْهِ جَدِّه.. ثم هَمَسَ

في أُذُنِ أُخْته (بُشْرى) من جَدِّها وسَأَلَتْه: لماذا البكاءُ منذُ الصَّباحِ يا جَدِّي؟

هل عادَ المرضُ مِنْ جَديدٍ.. لا سَمَحَ اللهُ ولا قَدَّر؟!

قال الجَدُّ بصوتٍ مُنْخَفِضٍ: لا ، يا أحبابي.. فالصِّحَّةُ وللهِ الحمدُ على أَحْسنِ ما يَكُونُ ، لكنَّ الأمْواجَ ذَكَّرَتْني بجدَّتِكم المَرْحُومةِ.. لقد كانتِ امرأةً عاقِلةً ذكيَّة.. لقد كانتْ تملأُ عليَّ فَراغَ الحياةِ.. لقد وقفتْ إلى جانبي في كُلِّ الأزماتِ والمَصائبِ.. فَرَحِمَها اللهُ وأَسْكَنها فَسِيحَ جِنَانِه...

إذاً ـ قالتْ (بشرى) ـ: هاتِ لنا الحِكايةَ الجَديدةَ يا أحلى جَدٍّ في العالمِ!!

ابتسمَ (الشَّيخُ حسينُ): وبدأ يَحْكي لِلأطْفالِ حِكايةً جَدِيدةً:

بدايةُ الحِكايةِ

في قَدِيمِ الزَّمانِ ، كان لرجلٍ صَالحٍ وَلدانِ قَويَّانِ ، ودارَ الزَّمنُ دَوْرتهُ.. وكبرَ الولدانِ ، وأَصْبحا في مَرْحلةِ القوَّةِ والشبابِ ، ووَرِثا عن أبيهما وجَدِّهما العملَ في الزِّراعةِ والأرضِ وإنتاجِ الفَواكهِ والخُضْراواتِ.

وقَسَما المِيراثَ ، فكانتْ حِصَّةُ كُلٍّ منهما أرضاً زِراعيَّةً كَبِيرةً.

فأمَّا الشَّابُّ الأوَّلُ فكانَ رجلاً صالحاً.. يحمدُ اللهَ على نِعَمِه.. ويَشْكُرُ اللهَ على فَضْلِه وجُودِه.. ويُعْطي الفقراءَ والمَسَاكينَ والمُحْتاجينَ من ثِمارِ بُسْتانِه...

ولا يتكبَّرُ على أَحَدٍ من خَلْقِ الله أبداً.. وكانَ يَدْعُو اللهَ كثيراً أن يُعِيْنَهُ على طاعَتِه.. ويطلبُ الغُفْرانَ منه...

لذلكَ أحبَّه كُلُّ النَّاسِ... وبالفعلِ كانُوا يَحْتَرمُونه ويُجِلُّونه..

وأمَّا الشَّابُّ الثَّاني ، فكان على النَّقِيضِ منه.

كان يتكبَّرُ على عِبادِ اللهِ.. ويفتخرُ بالأموالِ والثِّمـــارِ.. ويطـــردُ الفقـــراءَ والمســـاكيـــنَ والمحتاجينَ..

ولم يكنْ لديه همٌّ إلا جَمْعَ النُّقودِ في صُنْدُوقِ المالِ؟

الفِتْنةُ.. الفِتْنةُ!!

لكنْ أتدرونَ يا أحبابي ماذا حَدَثَ بعد ذلكَ؟!

لقد أرادَ اللهُ أن يَمْتَحِنَ الشَّابَّ الثَّاني.. فَفَتَحَ عليه أبوابَ النِّعم والمالِ والرِّزقِ...

فَكَبـرتِ الأَشْجَـارُ المُثْمِـرةُ... وازْدادَ الإنْتـاجُ

الزِّراعيُّ.. وأصبحَ بُسْتَانُهُ قِطْعةً من الجِنَانِ البديعةِ ، وأمَّا المِياهُ فكانتْ أَمْراً مُذْهِلاً... لقد فاضتِ الأنهارُ.. وكثُرتِ الينابيعُ.

لكنْ ـ قالتْ (بشرى) ـ: يا جَدِّي.. أهذا النَّعيمُ كلُّه.. وتقولُ لنا: أرادُ الله أن يَمْتَحِنَهُ؟!

قال الشَّيخُ: أَجَلْ... فاللهُ أعطاهُ النِّعَمَ ، ليسمعَ شُكْرَه وحَمْدَه.. وليرى كيف يَتَعامَلُ مع المُحْتاجينَ ، فإنْ قام بما يُرضِي الله وأَعْطى عِبادَ اللهِ.. زادَهُ اللهُ نِعَماً وفَيضْاً... ، وإلا إذا تكبَّرَ وتَجَبَّر وتَبَخْتَر.. فعقوبةُ اللهِ وغَضَبُه آتيانِ لا مَحَالةَ!!

ولكن يا جَدِّي ـ قال (طارقٌ) ـ: والشَّابُّ الأوَّلُ ماذا حَدَثَ معه؟

تابعَ الجَدُّ الحِكايةَ:

بَقِي الأولُ على ما هُوَ عليه.. وراحَ النَّاسُ

يتحدَّثُون عن الفَرْقِ الكبيرِ بين بُسْتانِ الثَّاني وبُسْتانِ أخيه الأوَّلِ..!!

واستمرَّ الأولُ على تعبُّدِهِ وذِكْرِه وتَواضُعِه مع عِبادِ الله... ، وعلى الرَّغم فقره فإنَّه يقتنعُ بأمورٍ عَجِيبةٍ: بُسْتانه لا ينتجُ إلا القليلَ.. ومع ذلك كان يأخذُ من مالِه ربعَهُ ويُوزِّعه على الفقراءِ!!

نَصِيحةٌ لا تجدُ سامِعاً!!

وذاتَ يومٍ التقى الشَّابُّ الأولُ مع الشَّابِّ الثَّاني.. فسأله الثَّاني بكُلِّ ازْدِراءٍ واشْمِئْزازٍ وتفاخُرٍ:

هل عندك دخلٌ آخر؟.. أَلاَ ترى أَشْجارَكَ كيف تموتُ في الصَّباح والمساءِ.

وانْظُرْ إلى أَشْجَاري.. وألوانِها الرَّائعةِ..

وثِمارِها النَّاضِجَة.. وينابيعه ، وأنهاره المُتَدَفِّقة.. ألستَ ترى إلى ما أُعْطِيْتُ أنا؟ بينما حُرِمْتَ أنتَ وأمثالك؟!..

إنَّه دليلُ رِضا الله عَنِّي.. وغَضَبِه عليك!!

لكنَّ الشَّابَّ الصَّالحَ كان يرى الأمرَ على حَقِيْقَتِه.. كان يعتبرُ ذلك فِتْنَةً وامْتِحاناً من الله سُبْحانه وتعالى ، ولكنْ كيف السَّبيلُ إلى إقْناعِ أخيه المَغْرورِ بذلكَ؟

وفي الصَّباح انطلقَ الأخُ المُؤْمنُ إلى أخيه فَنَصَحه ورَغَّبَهُ.

ثُمَّ قال له: يا أخي! واللهِ لن تَنْفَعك الأموالُ ، ولا الجِنانُ ، بل ولا الأولادُ ، واعلمْ أنه لن يُفِيْدَك إلا عملُ الخيرِ مَعَ النَّاسِ ومع اللهِ!!

ويضحكُ الشَّابُّ المَغْرورُ ، ويقولُ لأخيه: لولا هذه الأموالُ التي تَمْلِكُها لا تساوي أيَّ شَيء..!!

ويضيفُ الشَّابُّ الصَّالحُ: ولنا وقفةٌ رهيبةٌ أمامَ أَحْكمِ الحاكِمينَ سُبْحانه وتعالى ، فإنْ قَدَّمْتَ هنا عَملاً صالِحاً لقيتَه غداً عِندَ اللهِ ، فَكَافأكَ بأحْسَنَ منه ، وإن ارتكبتَ المعاصي نالَتْكَ عُقوبةُ اللهِ في الآخِرةِ..

ضَحِكَ الشَّابُّ الطَّائِشُ ، حتَّى كادَ أن يَنْقِلبَ على ظَهْره ، ثم قالَ لأخيه:

وعن أيِّ حِسابٍ تتحدَّثُ؟ وهل تُصدِّقُ بوجودِ يومِ قيامةٍ؟! وما هو الدَّليلُ على ماتَقُولُ؟

نقاشٌ عَقِيمٌ!!

ولكنْ يا جَدِّي ـ سألتْ (بشرى) ـ: ماذا حَدَثَ بين الشَّابَّينِ؟

تابَعَ الجَدُّ حِكايَتَهُ الرَّائِعةَ:

وأمَّا الشَّابُّ الصَّالحُ فكان يخافُ على أخيه..

وكان يرى أنَّ المالَ قد أَطْغاهُ ، وأَخَذَ به إلى الهاويةِ!!

بينما كان الشَّابُّ الطَّائِشُ المغرورُ ينظرُ إلى أخيه التَّقي الوَرِع نَظْرةَ اسْتِهْزاءٍ وسُخْريةٍ.. ولسانُ حاله يقولُ له: لو كان اللهُ راضياً عنكَ كما تَزْعمُ لَرَزَقَكَ الرزقَ الوافرَ الكَثِيرَ!!

وتقدَّم الشَّابُّ الصَّالحُ من أخيه ينصحُه مَرَّةً تِلْوَ مرَّةٍ:

يا أخي! ألا تَرَى إلى نَشْأتِكَ الأُولى؟ مَنِ الذي خَلَقَكَ؟ ومَنِ الَّذي رَزَقَكَ وأَنْعَمَ عليكَ بهذه النِّعمَ؟.. ألا تعتقدُ أنَّ اللهَ بيده كُلَّ شيء؟ ألا ترى أنه سُبْحانه وتَعالى يمتحنُ العبدَ ليرى مَدَى طاعَتهِ..؟!

يا أخي!أغرَّكَ المالُ ، والدُّنيا؟! ألا ترى الذين

ماتُوا قَبْلَنا.. هل أَخَذُوا معهم من الدُّنيا أيَّ شيء؟..

ألا ترى كيف نُنْزِلُهم بأيدينا إلى القَبْر، ونُهِيلُ عليهم الحِجارةَ والتُّرابَ، وَنَتْركُهم في قُبُورهم فُرادى؟!

يسألُ (خالدٌ): وهل تراجعَ الشَّابُّ الطَّائِشُ عن غُرورِه وعنادِه وكُفْرِه؟!

يتابعُ (الشَّيخُ حسينُ) حِكايَته الجَمِيلةَ:

أبداً، إنَّما ازدادَ عناداً، وقال لأَخيه الصَّالحِ: لو كان هناك ربٌّ كما تقولُ فَلْيُنْزِلْ بي عُقوبةً.. فأنا أُحِبُّ العُقوباتِ؟!

وكان غَضَبُ اللهِ شَدِيداً!!

وعادَ الأَخَوانِ إلى القريةِ، وجاءَ أَمْرُ اللهِ بتدميرِ كُلِّ مايملكُ الشَّابُّ المَغْرُورُ!

غيومٌ سَوْداءُ.. ورِياحٌ عاصِفةٌ.. ورعودٌ وبَرْقٌ من هنا وهناك.. ومطرٌ غَزِيرٌ.. وماهي إلا ساعاتٌ.. حتى اقْتُلِعَتِ الأشجارُ ، وغارَتِ المياهُ في الأرضِ.. ولم يَبْقَ خُضْراواتٌ ولا فَواكِهُ.. وتَحَوَّلتِ الأشجارُ إلى عيدانٍ وحَطَبٍ يابِسٍ..!!

ولمَّا جاء الشَّابُّ إلى بُسْتانه ـ وهو يسيرُ كالطَّاووس ـ رأى مالا يُصَدَّقُ ، فَوقَع مَغْشِيّاً عليه..

ولمَّا اسْتَفاقَ رأى إلى جوارِه أخاه الصَّالح.. وهو يقولُ: الحمدُ لله الذي عافَانا مِمَّا ابْتَلَى به كثيراً من خَلْقِهِ...

وندمَ الشَّابُّ نَدَماً لا فائدةَ معه ، فَأَمْرُ اللهِ قد نَفَذ ، ولا رادَّ لأمرِ اللهِ تعالى.

تعالَوْا يا أحبَّتي نستمعْ إلى نهايةِ الحِكايةِ من القُرآنِ الكريمِ:

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف: ٣٩ ـ ٤٤] .

ويلتفتُ الجَدُّ إلى ساعَتِه.. ويقولُ: لقد حانَ وقتُ الإفطارِ.. فهيَّا إلى البيتِ ، فَسَنَتَناولُ وَجبَةَ الإفطارِ ، ثم سَنَتَوجَّهُ إلى المسجدِ لأداءِ صلاةِ الجُمُعةِ...

والحَمْدُ لله رَبِّ العالمينَ